عتبات النص التراثي
مقاربة في عتبة "المقدّمة"

أ. سعيدة تومي
جامعة برج بوعريريج

*ملخص المقال بالعربية :

يعدّ الناقد الفرنسي جيرار جينت Gérard Genette من أبرز المنشغلين بالنقد في مجال العتبات النصيّة ، فقد خص كتابا كاملا عنونه ب عتبات - Seuils صدر عام 1987 أطّر فيه لما يعرف بعتبات النص أو المناص ،إنّه كل ما يدور في فلك النص من بعيد أو قريب.

تأمل هذه المقاربة الى اعادة قراءة تراثنا العربي عبر قراءة حداثية تسعى إلى أن تكون مفارقة ، فما الذي تمثّله عتبات النص في موروثنا النقدي ؟و ما أهمية المقدّمة في الكتابة العربية التراثية ؟

في ضوء هذه المقاربة حرصت المقدّمة في تراثنا العربي و منذ الأسطر و الكلمات الأولى على وضع القارئ في المدار العلمي و النقدي و المعرفي للكتاب ، كما تقدّم بعض العناصر التي تشي بموضوع الكتاب المؤلف ، فكانت مفتاحا اجرائيا و توجيهيا لتقويم الكتاب و تقديره عامة ، و فهم خصوصياته و ردود أفعال القراء على وجه الخصوص .

الكلمات المفتاحية : عتبات النص / عتبة المقدّمة / المقدمة التراثية .

*ملخص المقال بالفرنسية :

Résumé de l'article : Seuils du texte patrimonial
Approche en seuil de l'introduction

Le critique Français Gérard Genette est considéré l'un des plus intéressés par la critique des seuils textuels, il a consacré tout un livre qui s'intitule "Seuils" paru en 1987 pour étudier ce qui est connu par les seuils du texte, il s'intéresse à l'entour du texte, à tout ce qui l'accompagne et le fait exister en tant qu'objet accessible, la présentation éditoriale et les divers textes de commentaire, le paratexte.

Cette approche espère la relecture de notre patrimoine arabe à travers une lecture moderne essayant d'être différente,

Alors que représentent les seuils du texte dans notre patrimoine arabe? Et quelle est l'importance de l'introduction dans l'écriture arabe patrimoniale ?

A la lumière de cette approche, l'introduction dans notre patrimoine arabe, et à partir des premiers mots et des premières lignes, tient à mettre le lecteur dans l'entourage scientifique, critique et de savoir du livre; elle présente aussi quelques éléments qui dévoilent le thème du livre, elle est devenue alors une clé directif pour évaluer et apprécier le livre en général, comprendre ses spécificités et la réaction des lecteurs en particulier.

Mots-clés : seuils du texte ؛ seuil de l'introduction ؛ l'introduction patrimoniale.

*ملخص المقال بالإنجليزية :

*نص المقال :

لقد شكل النص الأدبي – شعرا أو نثرا – اهتماما كبيرا في الدراسات النقدية القديمة و الحديثة ، و ظل هذا الاهتمام يربط مباشرة بين المبدع و الأثر الأدبي (النص) ، فالنقد الاجتماعي و الماركسية يريان في النص انعكاسا للبنية الاجتماعية التي أنتجته ، لذلك ربطه النقاد بالإيديولوجيا و الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المؤلف، أما التحليل النفسي فقد أسقط مفهوم اللاوعي على الأثر الأدبي خصوصا مع فرويد ثم جان لاكان، لكن النقد الجديد عرف تحوّلا كبيرا مع الشكلانيين الروس، حيث رأوا في العمل الأدبي – أولا وقبل كلّ شيء – نظاما من الأدلة .

اعتمد هذا النقد على التطور المهم الذي عرفته اللسانيات، ومع النقد الشكلي بدأ يتضح أنّ النص أخذ طريقه نحو التحرر من الذات المبدعة، ليستقل بنفسه ككائن منفصل يحمل في طيّاته الكثير من التأويلات، مفتوح على العديد من القراءات. هذا التطور في الدراسات النقدية أدى إلى ظهور مفاهيم جديدة ترتبط بالنص، أعادت هذه المفاهيم الاعتبار إلى جوانب أساسية في النص الأدبي، من أهم هذه المصطلحات ما عرف بمصطلح "النص الموازي – paratexte – " و هو ما يعرف أيضا في أغلب الدراسات النقدية العربية ب "العتبات" أو "عتبات النص" و يقصد بذلك جميع العناصر المرتبطة بالنص أو الأثر الأدبي التي تشكل مدخلا لقراءة النص. فهذه العتبات هي التي ستقود القارئ، الناقد إلى مركز الانفعالات، وحركية الحياة في مسالك النص .

يعد الناقد الفرنسي جيرار جينت -G-Genette من أهم المنشغلين بالنقد في هذا المجال خصوصا مع صدور كتابه الهام "عتبات" Seuils سنة 1987. تحدث فيه عن ما سماه عتبات النص أو المناص : Le paratexte إنّه كل ما يدور في فلك النص من بعيد أو قريب.

من هنا يأمل هذا البحث في معاودة قراءة ترا ثنا النقدي، ليتحقق من خلال ذلك هدفنا في إتاحة الفرصة لمقاربة النصوص التراثية في صورتها الأولى، كما ورثناها عن السلف عبر قراءة حداثية تسعى إلى أن تكون مفارقة، لهذا يقوم البحث على محاولة النظر في نصوص تراثية لها سمة الحضور و الحيوية، لأنه ينبغي ألا ننفصل عنها و لابد أن تعيش بيننا، لأجل كلّ هذا ارتكزت هذه المقالة على محاولة الكشف عن عتبات النص التراثي .

إنّ المؤلف – أيّا كان– لا يمكن أن يقدّم عاريا من النصوص التي تسيّجه، لأن قيمته لا تتحدد بمتنه و داخله فقط، بل بمجموع النصوص التي يتشكل منها، هذه النصوص التي أصرّ عليها جنيت في أكثر من بحث مؤكدا أنّها جزء من نظام معرفي هام، كونها مجموع النصوص التي تحيط بمتن الكتاب من جميع جوانبه. والتي تتمثل أساسا في العناوين الرئيسة، المقدّمات، الإهداءات، التصديرات، الحواشي، الهوامش، العناوين الفرعية، الفهارس، الخاتمة، إضافة إلى بيانات النشر المعروفة التي تشكل في الوقت ذاته نظاما إشاريا ومعرفيا، لا يقل أهمية عن المتن، غير أنّنا في هذا المقام لن نأتي على كل مصنفة جيرار جينت بل انتقينا منها ما كان أكثر إفادة لبحثنا في هذا المجال: عتبة المقدّمة في جملة من المؤلفات النقدية التراثية، إنّها عنصر من عناصر عديدة توجد على حدود النص، و اختيارنا لها و منحها نوعا من الامتياز يرجع إلى كونها تحتل موقعا استراتيجيا في كلّ عمل أدبي يملك خصوصية و كفاءة. فما الذي تمثّله عتبات النص في موروثنا النقدي ؟و ما أهمية المقدّمة في الكتابة العربية التراثية ؟ هكذا تحتل المقدّمات مجالا محوريا في الدراسات النقدية و الأدبية، لكونها عتبة من العتبات النصيّة الهامة، بعد أن كان النص في ذاته الموضوع الأساس و المفضّل منذ العقود السابقة، و ترجع أهمية المقدّمة إلى كونها تساعد على التعرف على محيط النص، و الإلمام بمقاصد مؤلفه، و كيفية تلقيه من قبل الآخر، من هذا المنطلق تسعى هذه المقالة لتكون محاولة لقراءة نقدية تأخذ على عاتقها بعض أمهات الكتب النقدية التراثية، و النظريات الحديثة المتصلة بموضوع الكتابة : " العتبات النصيّة " لنكشف عن جوانب مفارقة في النص التراثي .

إنّ خطاب المقدّمات في النص التراثي يشكل محورا هاما أغفلته الدراسات العربية، و اكتفت بمتون المؤلفات و تجاوزته أو جهلته ينصهر في إطار دراسة المتن بأكمله، و من ثم أهملت خطابا متميّزا في نوعية كتابته و تشكله ووظائفه، و هذه العتبة ليست ظاهرة حديثة أو معاصرة، بل إنّ المصنفات النقدية التراثية احتوت على مقدّمات كثيرة ومتنوعة معرفيا و منهجيا ، من هنا تكتسي المقدّمة أهمية مركزية كمدخل للكتاب، لاحتوائها على معلومات تساعد كثيرا في فهم طبيعة تأليفه و تحديد

موضوعه و دواعيه .المقدّمة إذن هي بمثابة تدشين للنص و فرصة لتأسيس العلاقة الممكنة بين المتلقي و النص، يقدّم له آليات مسبقة لقراءته.

إنّ متعة البحث في خطاب المقدّمات ترجع إلى أنّها تلفت النظر إلى ما فيهًا من أفكار و إلى ما تتضمنه من مشاريع نظرية يهدف الباحث إلى تطبيقُها و التقيدُّ بها في متن كتابه، لأنها تمثل الصورة المثالية التي يتطلع الناقد لإنجازها، فيما يمثل الكتاب الجانب المنجز . إنّ المقدّمات في تراثنا النقدي العربي تعد في حد ذاتها مرجعا رئيسا يحوي الكثير من القضايا النقدية، و تستوعب هاجسا معرفيا عاشه نقادنا العرب ، و بذلك فهي تؤطر للنقد العربي التراثي بخلاف المقدّمات في المراجع الحديثة التي أصبحت تختزل في صفحات معدودة أن لم نقل أسطرا قليلة لا غير . من ثم فإنّ « قراءة المتن تصير مشروطة بقراءة هذه النصوص. فكما أننا لا نلج فناء الدار قبل المرور بعتباتها، فكذلك لا يمكننا الدخول إلى عالم المتن قبل المرور بعتباته »[1]

من هنا يصبح البحث في عتبة المقدّمة في النصوص النقدية التراثية له ما يبرره، و يبقى هدفنا الإبانة عن ثراء ما ورثناه، و عن قيمة ما تركه لنا الأسلاف ايمانا بأن العمل الفكري الجيّد كما هو تاريخي مرحلي، هو أبدي لا يقف عند حدود زمانه و مكانه، لهذا لا يجب أن يتحول تراثنا العربي إلى زاد معرفي مهمل ، يزيّن أدراج مكتباتنا لا غير . إذ من المهم جدا قراءة تراثنا العربي في ضوء أفكار حداثية و منهجية مخالفة تكشف لنا جوانب خفية فيه، و تبرز جهود النقاد التراثيين في مقاربة الخطاب الأدبي من حيث هو استثناء و حضور و خصوصية .

نسعى في هذه المقالة أن نسلط الضوء على نماذج من المقدّمات في تراثنا النقدي بدءا بمقدّمة كتاب "الشعر و الشعراء " لابن قتيبة ، إن المقدمة في هذا النص التراثي "الشعر و الشعراء" من أبرز العتبات النصيّة لكونها تشكل وعاء معرفيا يختزن رؤية المؤلف و موقفه من إشكالات عصره الإبداعية و النقدية المتداولة في الساحة النقدية آنذاك: « فقد وضع ابن قتيبة كل ما لديه من نظرات ... مجموعة مرة واحدة في المقدّمة مما جعل العين تصدم بها وهي تقبل على قراءة الكتاب، و ربما أنّ أغلب الباحثين في تاريخ النقد لم يتعدوا قراءة هذه المقدّمة فعلا، و يندر أن تجد من اقتبس نصا و لو نصا واحدا من كتاب ابن قتيبة خارج حدود المقدّمة الواضحة . وكان باقي الكتاب أرض محرّمة ».[2]

هكذا انصهرت دراسة المقدّمة في إطار دراسة المتن و أغفلتها القراءات من وجهة نظر كونها خطابا متميزا في نوعية كتابته و تشكله ووظائفه، إنّه خطاب المقدّمات Discours Prefaciel حتى أننا نجد: « بعض المؤلفات التي صنفت في مجال النقد لم تأخذ مشروعيتها النقدية تلك، إلا من مقدماتها و الأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي و "الشعر و الشعراء" لابن قتيبة .... »[3]، لهذا فإنّ قراءة مقدمة "الشعر و الشعراء" استنادا إلى كونها إحدى العتبات النصيّة ضرورة لا مناص منها للدخول إلى فضاء الكتاب و من ثم تتقلص حرية القارئ في إمكانية تجاوزها إلى المتن مباشرة، مما يؤثر في تأطير خطاب المقدّمات . إنّ مقدمة ابن قتيبة مثل نص الكتاب تستدعي أن ينظر إليها كي تتحدد خطوطها القوية، و التلاحم الحيوي بين عناصرها الذي يمثل موقعها وسياقها جزءا من البناء القصدي للكتاب . و لكن قبل ذلك سنقف عند جملة من المفاهيم الأولية للخطاب المقدّماتي في الفكر العربي .

1- المقدّمة/ مفاهيم أولية : كثيرا ما يتداخل مصطلح المقدّمة مع مصطلحات أخرى متعددة كالتمهيد و المدخر و التصدير و الفاتحة و المطلع و الاستهلال ، غير أنّ عبد الرزاق بلال يرى بأنّ معاجم اللغة لم تنطو على ما يدلنا على الفارق الحاسم بين هذه المصطلحات، فيما عدا بعض الاستعمالات التي تحيل على حقل معرفي معيّن، كمصطلح "الفاتحة" الذي كثيرا ما يتعلق بالدراسات القرآنية، كقولنا فواتح السوّر .

الأمر نفسه بالنسبة لمصطلحي "المطلع و الاستهلال" و هما غالبا مصطلحات تقنية مرتبطة أشد الارتباط بالنصوص الشعرية العربية ، التي اعتاد فيها الشعراء على استهلال قصائدهم بذكر الديار، ووصف الرحلة و الراحلة قبل التخلص إلى الغرض الرئيس. (4)

كما ذهب حامد حفني داود إلى أنّ القدماء و المتأخرون كانوا يسمون المقدّمة "الخطبة : « وقد كان القدماء و المتأخرون يمارسون كتابة المقدّمة التي نكتبها نحن اليوم ، و لكنهم كانوا لا يسمونها بهذا المصطلح بل كانوا يطلقون عليها (الخطبة) و هم يضعون خطبة الكتاب في أوّله ، و لعهد قريب جدا كان علماء الأزهر و الفقهاء و اللغويين يكتبونها في أول كتبهم ، يغرمون فيها بالأسلوب المسجوع، و ربما كانت خطبة الكتاب أبرز شيء في أساليبهم حيث يبرزون قدراتهم الفنية في هذه الصناعة ، و يتنافسون فيما بينهم في كتابتها ».(5) و هي غير التقديم الذي يمثل افتتاحية لا يكتبها مؤلف الكتاب بل آخرون، كالمشرف أو عالم مختص.

أما بالنسبة إلى المصطلحات الأخرى : التمهيد و المدخل و التصدير فهي « غالبا ما ترد متلازمة و لا تكاد في معناها العام تخرج عن مفهوم المقدّمة ».(6)و هذا مجانب للصواب لأن التمهيد و المدخل مترادفان في الدلالة . و يختصان بالتأصيل أو يبحثان في البيئة أو العصر أو المؤلف . بينما التصدير أكثر تعلقا بالمقدّمة منه بالتمهيد لأنّ صدّر بمعنى قدّم .

و الفرق بين المقدّمة و التمهيد يكمن في كون : « المقدّمة أشبه بحديث النفس يكتبها الباحث متحدثا عن تجاربه و معاناته ... أما التمهيد فهو أشبه بجزء من البحث إلا أنّه سابق عليه ، و هو أشبه بالأرضية أو الخلفية الفنية التي تلقي ضوءا على أبواب البحث».(7)

جاء في معجم المصطلحات العربية مصطلح التصدير مترجما للمصطلح الإنجليزي Foreword و المصطلح الفرنسي Préface ويعني « كلمة يكتبها المؤلف في أول كتابه يعبّر فيها عن ملاحظات شخصية موجهة إلى قارئ الكتاب ، و تنتهي عادة بفقرة فيها الشكر للأشخاص و الهيئات التي ساعدت المؤلف في بحثه، و قد جرت العادة أن يكتب تصدير جديد لكل طبعة جديدة لمؤلف ينص فيه على ما في الطبعة الجديدة من اختلاف عن الطبعة أو الطبعات السابقة عليها، و لا يتعدى التصدير الصفحتين أو الثلاث، في حين أنّ المقدمة قد تصل إلى طول فصلين من فصول الكتاب ».(8)

كما أنّ المقدمة تأتي في شكل « مقال طويل يقدّم به المؤلف أهم المبادئ و المناهج التي سيقوم عليها مؤلفه فيما بعد».(9)

و هي وسيلة ضرورية لرسم صورة عامة و مركزة على موضوع المتن ، لأنها من أهم « الفضاءات النصيّة في عملية ولوج القارئ من عالم ما قبل النص إلى عالم النص ».(10)

من هنا تبرز أهمية عتبة المقدّمة في تمكيننا من المرور إلى المتن كما أنها تؤصل الجانب المفهومي النظري حتى و لو جاءت مختزلة فهي تكشف عن الموضوع و المنهج و الخصائص، و هي أيضا لا تخلو من وظائف تتعدد وتختلف بتعدد المقدّمة ذاتها و اختلاف طبيعتها و سياق تأليفها ، ومع ذلك حاول الباحث عبد الرزاق بلال حصر وظائف المقدّمة في النقاط التالية :

- السعي إلى تنبيه القارئ و توجيهه و اخباره بأصل الكتاب و ظروفه و مراحل تأليفه و مقصد مؤلفه ، و هذا ما يمكن أن يطلق عليه "استراتيجية البوح و الاعتراف" و يمكن عدّها الوظيفة المركزية .
- تسعى المقدّمة إلى توجيه القراءة و تنظيمها و تهيئ القارئ لاستقبال مشروع قيد التحقق، سيكون مجاله متن الكتاب ما يؤكد مشروعية اعتماد المقدّمة الملفوظات الدالة على الاستقبال :سأذكر ،سأورد ، سأبيّن.... و من ثم بقدر ما تصير قراءة المقدّمة ضرورة لا مناص منها للدخول إلى فضاء المؤلف فإنّها تقلص حرية القارئ في إمكانية تجاوزها إلى المتن مباشرة .

♦ تتحول المقدّمة أحيانا إلى نوع من الميتالغة للنص المقدّم له ، تختزله و تكثّفه دون أن يعني ذلك الاستغناء عن قراءة المتن، بل إنّ قراءة المتن مشروطة بقراءة المقدّمة .

♦ في بعض الأحيان تتحول المقدّمة إلى خطاب دفاعي حجاجي من خلال معالجة الانتقادات التي قد تمس الكتاب.[11]

♦ و في أحيان أخرى تتحول المقدّمة إلى شرح للعنوان و تحليله بشكل مسهب ، كما يؤكد جيرار جنيت على مطالب المؤلف الضمنية من المقدّمة : « لا أحد ينبغي أن يتجاوز قراءة المقدّمة ، فهي حريّة لا يرحب بها المؤلف».[12]

في ضوء ما سبق تكتسي المقدّمة أهمية بالغة، فهي ليست النص الذي يمكن تخطيه بسهولة ، إنّما هي العتبة التي تفضي بنا إلى فضاء المتن ، و تسعى إلى استجلاء مقاصد الخطاب و الكشف عن قضايا الفكر فيه ، إنها في النهاية مرآة لفكر المؤلف ذاته ، و هذا ما يتطلب من الدارس التعامل مع خطاب المقدّمات تعاملا خاصا ، كما يتوجب النظر أيضا إلى مؤلف المقدمة عند التحليل ، و هي نقطة أخرى ناقشها جنيت في مؤلفه و فصلها عدد من الباحثين مؤكدين على ثلاثة أصناف من المقدّمين [13]:

الأول : المقدّم الحقيقي: Préfacier Réel : هذا ما نجده في حالة اسناد مهمة التقديم إلى شخصية حقيقية واقعية ، غالبا ما يكون صاحب المقدّمة و المتن معا ، يهيمن فيها الضمير "أنا ".

الثاني : المقدّم المتخيّل : Préfacier Imaginaire: هو نوع من التقديم قليل الورود يتجلى في ضوء نسبة التقديم إلى شخصية من صنع خيال الكاتب ، و الخطاب الذي يجري على لسانها لا يعدو أن يكون من صنع المؤلف ذاته.

الثالث : المقدّمة المنسوبة إلى شخصية واقعية بالخطأ Préfacier Apocryphe.

يضاف إلى هذه الأنواع نمط آخر من المقدمات لا يكتبها أصحاب المؤلفات أنفسهم ، بل يكتبها أشخاص آخرون لأغراض متعددة ، يمكن إجمالها في أنواع ثلاثة على نحو ما قدمها الباحث عبد الكبير الخطيبي عند تقديمه لكتاب عبد الفتاح كيليطو " الأدب و الغرابة " و هي :

♦ مقدّمة تقريظية : في غالب الأحيان لا تفيد شيئا إلى الكتاب المقدّم ، و يمكنها أن تكون فقط تجارية و إشهارية ،إنّها مقدّمة تتوخى أن توجه القارئ و أن تعطيه حكما مسبقا على قراءته.

♦ مقدّمة نقدية : تدخل في حوار مع الكتاب المقدم تحلله لفائدتها الخاصة مع مساءلته وعدم الاستسلام لما يقدّمه، و من الضروري أن يكون هذا النقد مسهبا بالقدر الكافي الذي يتيح إبراز أصالة الكاتب. و أن يكون متباعدا بما يكفي لكي لا يختلط صوته بصوت الكتاب .

♦ مقدّمة موازية للنص : تكون مستقلة عنه تماما، إنّها مقدّمة غير مباشرة ،هذه المقدّمة مع احتفاظها بحريتها يتحتم عليها أن توجه انتباهها لمختلف الأسئلة المطروحة . [14]

هكذا يتميز خطاب المقدّمات في مجمله بالسعي اتجاه التوضيح و تعرية المستور من الأفكار و كشف المغمور منها و ارشاد القارئ للمنتظر . وبذلك تصبح المقدّمة ذات دور علمي يتجاوز مجرد المداخل التقليدية . إنّها تشكّل في النهاية نصا لا يشرع للآتي فقط، وإنّما يختزل الماضي أيضا و يحيلنا على مرجعية صاحبه.

2- المقدّمة في الفكر العربي : الملاحظ أنّ العلماء العرب لم يطلقوا على مقدّمات كتبهم مصطلح "مقدّمة" بل ما ثبت عنهم هو استعمال مصطلح "الخطبة " للدلالة على المقدمة و لهذه الخطبة شروط المعرفة باللغة و النحو و إخراج المضمون في أسلوب بياني متميز.

إن تحقق مفهوم المقدّمة كان لابد أن يمر بمراحل عديدة تطورت فيها أشكالها من الافتتاح بقولهم "باسمك اللهم" إلى "البسملة" إلى اعتماد ما عرف بفصل الخطاب ، و هو ما تعنيه عبارة "أما بعد" ثم "الحمد لله" إلى أن وصلوا إلى المقدّمة التي عرفت ب "الخطبة" [15]. و هذه العناصر هي ما سبق أن عبرنا عنها بمصطلح عناصر التقديم التي تمثل فاتحة الولوج إلى عالم الإشكالية .

إذن « مصطلح مقدّمة مصطلح لاحق في الثقافة العربية ، إن المصطلح الشائع هو مصطلح الخطبة و يليه المقدّمة ، ووضع هذين المصطلحين نصا في بداية مقدّمات الكتب كان نادرا جدا، إذ كثيرا ما يكتفي المؤلف بالبسملة ثم يبدأ بعدها بالدعاء و الحمد ، و ينتقل بعد هذا إلى موضوعه و ما تتضمنه المقدمة من معلومات أخرى، بعبارة أو لفظة كثر ترددها بين المؤلفين القدامى ، و هي قولهم "أما بعد" أو "بعد" مما يحملنا على القول بأنّ البسملة ... صارت عنصرا أساسيا من عناصر مقدّمات الكتب عند القدامى».[16]

إنّ الدارس لمقدّمة الكتاب في التراث العربي الإسلامي ، و المتتبع لمختلف التحولات الت طرأت عليها وعلى العناصر المكوّنة لها من بداية التأليف إلى بداية النهضة العربية ، يلحظ بما لا يدع مجالا للشك أنّ الخطاب المقدّماتي عند العرب كان يستمد مقوماته من صميم الثقافة العربية الإسلامية و ظلّ يهتدي بالخطاب القرآني "البسملة" ، و يحذو حذوه في طريقة افتتاح عملية الكتابة.

لقد ميّز العرب في وقت مبكر من ثقافتهم بين مستويين من الخطاب في البنية النصيةّ لكل مؤلف: أحدهما أساس و الآخر تمهيدي أو تصديري بلغتهم. أما الأول فيمثله متن الخطاب ، الذي يروم المؤلف إبلاغه للقراء المستهدفين ، و أما الثاني فتجسده مجموع العناصر، التي ترافقه و تسبقه غالبا – حسب تقاليد صناعة المؤلفات – قديما والتي تتقدم من حيث كونها خطابا واصفا للأول، و مقدّما بين يدي القارئ. [17]

حظي هذا الخطاب الأخير بعناية ملحوظة نظرا لوعيهم بأهمية المقدّمة ووظائفها و أدوارها المتميّزة . و لذلك كان بينهم اتفاق ضمني على ضرورة احترام المقدّمة لجملة من القواعد، التي تبدو أساسية في بناء أي مقدّمة. لخصها الباحث عبد الرزاق بلال في النقاط التالية : [18]

♦ الحرص على حسن الصياغة و الديباجة باعتماد الأسلوب اللطيف، سيرا على نسق الرسائل الفنية حيث سيادة أسلوب السجع و المجانسة و المطابقة ، حتى و إن لم يتعلق الأمر بكتاب أدبي ، و خير مثال على ذلك كتاب " المقدّمة" لابن خلدون الباحث في التاريخ و العمران جاء فيها : « أما بعد فإنّ التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم و الأجيال، و تنشد إليه الركائب و الرحال، و تسمو إلى معرفته السوقة و الأغفال ، و تتنافس فيه الملوك و الأقبال، و تتساوى في فهمه العلماء و الجهال ، إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيّام والدول ، و السوابق من القرون الأولى تنمى فيها الأقوال ، و تضرب فيها الأمثال ، و تطرف بها الأندية إذا غصّها الاحتفال، و تؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، و اتسع للدول فيها النطاق و المجال و عمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال و حان منهم الزوال ».[19]

فضلا عن مقدمات عديدة في علوم مختلفة ، و لا يخفى على أحد أنّ الجزء الذي قدمناه من مقدّمة "المقدّمة" متسلسل الفقرات بأصوات و مقاطع صوتية تشّد الانتباه و تدفع إلى القراءة و الاستمرار فيها.

♦ عدم الاطالة في المقدّمة لدرجة تصبح أطول من متن الكتاب ، و ينقل لنا الباحث عبد الرزاق بلال في هذا السياق نقد "ابن الأثير "لابن الدهان" في رسالته الموسومة ب" المآخذ الكندية" مؤكدا قوله " إنّه أطال المقدّمة و اختصر الكتاب الذي

وضعت المقدّمة من أجله فكان كمن بنى دارا فجعل دهليزها ذراعا و عرضها شبرا، و كمن صلى الفريضة ركعة واحدة و صلى النافلة عشرا".

♦ الحرص على ضرورة انسجام ما تحتويه المقدّمة من معلومات مع موضوع الكتاب ، وغني عن القول أنّ المقدّمة شأنها شأن العنوان تقوم باستراتيجية البوح و الاعتراف ، و تفضي لما هو آت في ضوء سعيها إلى الكشف عن أنموذج الجنس الذي تنتمي إليه. إنها العتبة التي تفضي بنا إلى فضاء المتن ، و تسعى إلى استجلاء مقاصد الخطاب و تكشف عن قضايا الفكر فيه .

إنّ مقدّمات الكتب في تراثنا العربي الإسلامي كانت تحرص منذ الكلمات والأسطر الأولى التي تستهل بها خطابها على وضع القارئ في المدار العلمي للكتاب وتقدّم إليه بعض العناصر الأولى التي تشي بموضوعه و تلمح إليه بصورة تثير في ذهن القارئ رغبة جامحة في الاطلاع عليه و قراءته.

هكذا تتمتع المقدّمة بأهمية قصوى ضمن خطاب العتبات النصية لدواع مختلفة منها ما يرتبط بقواعد بنائها و منها ما يتعلق بوظائفها، وقد سبق و أن أشرنا إليها، و منها ما هو موصول بأصنافها على أساس أنّ أنواع المقدّمة تختلف تبعا لاختلاف طبيعة المقدّم له ، سواء في تراثنا العربي أو في مؤلفاتنا المعاصرة .

وقد آثرنا أن نعرض لهذه الفكرة حتى لا يستقر في أذهاننا شكل المقدّمة كأسلوب نثري، و الحق أنّ « المقدّمة لا تتقيد بأسلوب واحد، بل قد تتخذ الشعر أسلوبا لها، كما قد تتخذ أساليب أخرى كأسلوب الرسائل الجوابية و أسلوب الحوار و المناظرة و أسلوب المقدّمة النقدية ».[20]

فالمقدّمة / الرسالة ما كانت في حقيقتها جوابا على سؤال من أحدهم إلى المؤلف ، يكون بمثابة حافز إلى التأليف ، مثلما نجد ذلك في مقدّمة ابن طباطبا العلوي لكتابه "عيّار الشعر" : « وفقك الله للصواب و أعانك عليه ، و جنبك الخطأ و باعدك منه و أدام أنس الآداب باصطفائك لها و حياة الحكمة باقتنائك إياها – فهمت حاطك الله – ما سألت أن أصفه لك من الشعر ، و السبب الذي يتوصل به إلى نظمه ، و تقريب ذلك إلى فهمك و التأتي لتيسير ما عسر منه عليك ، و أنا مبيّن ما سألت عنه ... ».[21]

فالواضح في ضوء جملتي " ما سألت أن أصفه لك" و "أنا مبيّن ما سألت عنه " أنّ ابن طباطبا ألّف كتابه جوابا عن سؤال و توضيحا لاستفسار طرح من أحد السائلين .

أما المقدّمة الحوار أو المناظرة ، فإنّها ما جاءت في شكل حوار بين قطبين و أبرز مثال على هذا الشكل من المقدّمات مقدّمة الآمدي لكتابه "الموازنة" التي جاءت في شكل حوار بين نمطين من القراء متباينين في الذوق و الثقافة و المعرفة .

أما المقدّمة الشعرية فهي التي تتخذ الشعر أسلوبا لها ، فكثيرا ما نجدها في الدواوين الشعرية الحديثة التي يحرص فيها أصحابها على أن يكون التقديم من جنس العمل المقدّم له.[22] منها تقديم الشاعر محمود درويش لأعماله الشعرية بأبيات يوجه فيها القارئ عنوانها : "إلى القارئ":

« الزنبقات السود في قلبي
و في شفتي .... اللهب
من أيّ غاب جئتني
يا كلّ صلبان الغضب ؟
... يا قارئي !
ر ترج مني الهمس

لا ترج الطرب
هذا عذابي
ضربة في الرمل طائشة
و أخرى في السحب
حسبي بأني غاضب
و النار أوّلها غضب ». (23)

إلى جانب هذه الأشكال نجد شكلا آخر يمكن تسميته ب "المقدّمة النقدية" التي كثيرا ما تتحول إلى بيان نقدي لصاحبها، و يمكن أن نمثّل لهذا الشكل بمقدّمة كتاب "الشعر و الشعراء" موضوع المقالة ، و هذا ما أكده إحسان عباس بقوله : « هي بيان بموقفه النقدي عامة ، و دستور مستقل بمواده و أحكامه .... ». (24) التي كشفت أيضا عن ظروف إنتاج الكتاب و مراحله و مقصد مؤلفه .

إنّ مقدّمة الكتاب لم تكن شيئا طارئا في الثقافة العربية، بيد أنها اتخذت ملامح جنينية أولى في الخطب و الأشعار العربية الشفاهية، وتطورت بعد ذلك بفضل تنام حركة التأليف . و مع كل ما يمكن أن يقال عن واقع المقدّمات في مؤلفاتنا العربية، فإننا نلاحظ بذورا لها كانت تمهد للكتب ، و ظلت تتنامى في المراحل اللاحقة . و كثيرا ما كانت مستمدة من صميم الثقافة العربية الإسلامية .

3- المقدّمة في الشعر و الشعراء : قبل الوقوف عند المقدّمة في "الشعر و الشعراء" عند ابن قتيبة يحسن بنا التأكيد على قضية تتعلق بهذا المصنف مفادها الاختلاف الوارد بين الدارسين بخصوص هذه المقدمة ، ففي الوقت الذي عدّها بعض الباحثين كالطاهر أحمد مكي عبارة عن كتابين أحدهما في الشعر و الآخر في الشعراء ، و كان كل منهما نواة مؤلف مستقل إلا أنّ الظروف لم تسمح بظهورهما منفردين فجمع بينهما في كتاب واحد ،إذ يقول : « و يخيّل إليّ و الكتاب بعض ما ألّف ابن قتيبة في أواخر حياته ، أنّ كل منهما كان نواة مؤلف مستقل، لم تواته الفرصة ، ليمضي به إلى غايته كاملة فجمع بينهما برغم تباعد المنهج و المادة ، فهو في الأول مبدع ناقد و في الآخر راوية مؤرخ ، و يعزز رأيي هذا أنّه يشير في بعض مؤلفاته الأخرى باسم كتاب الشعر على حين يحيلنا في مؤلف آخر إلى كتاب الشعراء... ». (25) ، يذهب بعض الدارسين مذهبا مخالفا لما قال به الطاهر أحمد مكي و يتحدثون عن هذه المقدّمة كجزء من الكتاب، و في هذا الصدد يقول أمجد الطرابلسي : « و لهذا الكتاب كما لكتاب ابن سلام مقدمة مسهبة لها مكانتها المرموقة بين آثار النقد الأدبي عند العرب تحدث فيها ابن قتيبة حديثا رصينا في الشعر و ضروبه ، و في المبادئ التي يجب أن يلزم الناقد بها حتى يكون عادلا في حكمه، وفي إطار القصيدة العربية، وتتابع المعاني فيها، وفي الطبع والتكلف وفي عيوب الشعر، و ما إلى ذلك من الموضوعات التي لها شأنها في النقد الأدبي ، و لقد كان لهذه المقدّمة أثرها البيّن في كثير مما كتب بعدها في هذا الباب ». (26)

و في حديث محمد زغلول سلام ما يؤكد تصدرها للكتاب على أساس أنّها مقدّمة له : « و يبدأ الكتاب بمقدّمة طويلة للمؤلف يبسط فيها آراءه في الشعر و الشعراء ثم يتبعها بذكر الشعراء على مختلف طبقاتهم قدماء و محدثين ، جاهليين و إسلاميين ». (27) ، كما يؤكد جمال الدين بن الشيخ أنّ ابن قتيبة : « عمل في مقدّمته التي كثيرا ما أسيئت قراءتها على رصد تحديد دقيق لوضع الشعر و طبيعته ». (28)

هكذا يجمع جلّ الباحثين على أنّ ابن قتيبة قدّم لكتابه بمقدّمة وافية بيّن فيها منهجه في المتن ، ورأيه في المنتوج الشعري و مؤلفيه، كما انطوت هذه المقدّمة على آراء هامة في البلاغة و النقد و الشعر و الشعراء ، فضلا عن بنية القصيدة في التصور

الشفاهي متبوعا بالحديث عن الزمن المناسب للكتابة المتميزة. غير أننا في هذا المقام سنقف عند فضاء المقدّمة في "الشعر و الشعراء" .

والحقيقة أنّ المقدّمة عموما تقوم على مفارقة عجيبة قد لا تتسم بها نصوص أخرى ، فعلى مستوى المكان هي أول مكتوب يصادف القارئ ، لكنها على المستوى الزمني تكون آخر ما يكتب لهذا تتراوح الملفوظات التي تحتويها بين "ما قيل" و " ما يراد قوله" أو بعبارة أخرى "ما تمّ إنجازه" و "ما ينتظر إنجازه" [29] ، إذ أنّ العبارات التي تتخللها ملفوظات من قبيل : ذكرنا ،أوردنا ، قلنا، ألّفنا ... و ما شاكلها تحيلنا على أنّ المقدّمة كتبت بعد الفراغ من كتابة المتن ، في حين أنّ الملفوظات من قبيل : سأذكر ، سأورد، ...هي ملفوظات دالة على الحال و الاستقبال تفيد أذ المقدّمة كتبت قبل المتن ،و في هذه الحال غالبا ما تكون المقدّمة جوابا عن سؤال حقيقي أو متخيّل تلقاه المؤلف من أحدهم يستحثه على التأليف في موضوع ما أو قضية معيّنة فلا يجد بدّا من الاستجابة لطلبه و الإذعان لرغبته... ». [30]

يؤكد هذه الأقوال عبد الفتاح كيليطو في معرض تعليقه على نص لعبد القاهر الجرجاني في ضوء حديثه عن القصد من تأليفه أسرار البلاغة : « عندما أقرأ هذا النص نص الجرجاني أرى فيه مستويين : المستوى الأول : يحيلنا إلى "ما يريد أن يقوله الجرجاني" ، فالمؤلف يضع تصميما لكتابه و يشير إلى المسائل التي سيدرسها بإسهاب ، أي يعلن عن القضايا البلاغية التي سيفصل القول فيها ، المستوى الثاني : يحيلني إلى "ما قاله الجرجاني" فعلا ... ». [31] و المتأمل لمختلف المقدمات في تراثنا العربي يلحظ أنّها لا تخرج عن إطار هذين المستويين.

وإذا ما استوقفنا فضاء المقدّمة في "الشعر و الشعراء" نكتشف أنّها كتبت بعد فراغه من كتابة المتن، فكانت تعبيرا عن ما تمّ إنجازه ، و هذا واضح منذ الأسطر الأولى : « هذا كتاب ألفته في الشعراء ، أخبرت فيه عن الشعراء و أزمانهم و أقدارهم و أحوالهم في أشعارهم و قبائلهم و أسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم ، و عما يستحسن من أخبار الرجل ، و يستجاد من شعره و ما أخذته العلماء عليهم من الغلط و الخطأ في ألفاظهم أو معانيهم ، و ما سبق إليه المتقدمون، فأخذ عنهم المتأخرون ، و أخبرت فيه عن أقسام الشعر و طبقاته و عن الوجوه التي يختار الشعر عليها و يستحسن لها إلى غير ذلك مما قدمته في هذا الجزء الأول ». [32]

إنّ ابن قتيبة في هذا القسم من المقدّمة يوضح بصيّغ الماضي الطريقة التي اعتمدها في تصنيف كتابه، فالجزء الأول منه بثّ فيه كثيرا من القضايا النقدية التي تشكل في مجموعها أصول قراءة الشعر عند العرب ،و الجزء الثاني عبارة عن تراجم للشعراء ، يروي فيه أخبارهم و يؤرخ لحياتهم ، و من ثم يظهر ابن قتيبة صاحب شخصيتين مزدوجتين ، فهو في الأول الناقد للشعر ، المظهر لحسناته و عيوبه، و هنا تتجلى قدرته النقدية الذوقية من خلال آرائه في الشعر ، و في الجزء الثاني نجده الراوي لأخبار الشعراء و المؤرخ لحياتهم (يقدّم معلومة)، هذا يعني أنّه مزج في منهجه بين نظرتي الناقد و المؤرخ، و حتى في إشارته للسيرة الذاتية لم يتنبه إلى أثر الطفولة و الميولات النفسية و التحولات الرؤيوية في شخصيات الشعراء ، و لا سيما الذين أثبتوا ربطا واضحا بين تأليف الشعر و الثقافة المضافة ، فكيف يمكن للقارئ أن يستغل المعلومة في الكشف عن طبيعة الشعر و طبيعة قائله، من حيث للإبداع و الحضور (التفوق) ؟ علما بأنّ أثر الرواة و الإخباريين و اللغويين و النحويين مهيمن على منهج ابن قتيبة في الاختيار و الحكم و التصنيف.

يضيف ابن قتيبة في السياق نفسه : « و كان أكثر قصدي المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب، و الذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب و في النحو ، وفي كتاب الله عز و جلّو حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فأما من خفي اسمه و قلّ ذكره... فما أقل ما ذكرت من هذه الطبقة ، إذ كنت لا اعرف منهم إلا القليل و لا أعرف لذلك

القليل أيضا أخبارا ، و إذا كنت أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن أسمي لك أسماء لا أدل عليها بخبر أو زمان أو نسب أو نادرة أو بين يستجاد أو يستغرب ». (33)

فالمقياس الذي اعتمده هنا هو (المشهورين من الشعراء) الذين يعرفهم أهل الأدب و يستشهد بشعرهم لغاية من الغايات : الغريب ، النحو، تفسير القرآن . وهذا دليل واضح على بلوغ أشعار هؤلاء الشعراء درجة عالية من الجودة الفنية ، سواء من حيث اللفظ أو من حيث المعنى على نحو ما تعتقد به الثقافة الشفاهية ، من مبدأ المشاكلة بين اللغة و المضمون الذي يهيمن على الشاعر في مرحلة زمنية معينة.

لهذا تعد مقدّمة "الشعر والشعراء" بمثابة العتبة الضرورية لولوج متن الكتاب، و لولاها لما أمكننا معرفة المقاييس التي اعتمدها ابن قتيبة في عرضه للشعراء الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب، إذن هي فاتحة مشروع نقدي و متن الكتاب محلّ إنجازه بغض النظر إذا كان ابن قتيبة قد التزم به أم لا .

جاء أيضا: « و لم أعرض في كتابي هذا لمن كان غلب عليه غير الشعر فقد رأينا بعض من ألّف كتابا يذكر في الشعراء ، من لا يعرف و لم يقل منه إلاّ الشذ اليسير ....، و لو قصدنا لذكر مثل هؤلاء في الشعراء لذكرنا أكثر الناس ، لأنّه قلّ أحد له أدنى مسكة من أدب ، و لو أدنى حظ من طبع ». (34)

و قوله أيضا : « و لم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له ، سبيل من قلّد أو استحسن باستحسان غيره ،و لا نظرت إلى المتقدم منهم ، بعين الجلالة لتقدّمه ، و إلى المتأخر منهم ، بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ،و أعطيت كلا حظّه و وفرت عليه حقه .... ». (35)

و يضيف ابن قتيبة في السياق نفسه : « و كان حق هذا الكتاب أن أودعه الأخبار عن جلالة قدر الشعر ، و عظيم خطره و عمّن رفعه الله بالمديح ، و عمن وضعه بالهجاء و عما أودعته العرب بالأخبار النافعة ، و النساب الصحاح ، ... و العلوم في الخيل ، و النجوم و أنوائها و الاهتداء بها ،... غير أنّي رأيت ما ذكرت من ذلك في كتاب العرب ، كثيرا كافيا فكرهت الاطالة بإعادته ». (36)

إذن كل الملفوظات الواردة في الأمثلة السابقة " ألفته، أخبرت فيه ، كان أكثر قصدي، لم أعرض ، لم أسلك ، رأيت ، نظرت ، أعطيت، وفرت .... تدل أن ابن قتيبة يعبّر في هذه الأسطر عن ما سبق و أن أورده فهو يشرح منهجه في تأليف الكتاب ، و طريقته في تقديم الشعراء ، بعد الانتهاء من تأليف متن مصنفه ، لا سيّما في إيلاء الأهمية إلى منزلة الشعر ، و أنّه ليس هذيانا أو لهوا ، فبقدر ما هو إبداع جمالي هو وثيقة اجتماعية و بيئية في قالب جمالي ،إنّه يقدّم معرفة.

و الحقيقة أنّ مسار الثقافة العربية عبارة عن سلسل ة متصلة الحلقات مما يحتّم استفادة المتأخر من المتقدّم ، و هذا ما تأكد من استحضارنا لمقدّمة ابن سلام الجمحي في كتابه "طبقات فحول الشعراء" في معرض الحديث عن مقدّمة ابن قتيبة ، فالواضح أنّ هذا الأخير قد سلك السبيل ذاته ، الذي سار عليه ابن سلام الجمحي حتى أنّ أحد الباحثين يرى أنّ نص ابن قتيبة المطوّل –الذي سبق أن قدمناه – بديل مناسب لأيّ شرح أو بيان لنص ابن سلام المقتضب . (37) الذي جاء فيه: « ذكرنا العرب و أشعارها و المشهورين المعروفين من شعرائها، و فرسانها و أشرافها و أيامها ،إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب ... فاقتصرنا في ذلك على من لا يجهله عالم و لا يستغني عن علمه ناظر في أمر العرب فبدأنا بالشعر». (38)

إذن كلّ هذه النصوص و سواها تنهض دليلا على أنّ المقدّمة أنجزت بعد اكتمال المتن و الفراغ منه ، فكانت اختزالا لما تمّ إنجازه ، و تكثيفا لما هو موجود في متن الكتاب، و لمزيد من التوضيح ارتأينا أن نقارن هذه المقدّمات (ابن قتيبة و ابن

سلام) بمقدّمة أخرى ، لكنها تعبّر عن ما سيتم إنجازه مستقبلا ، إنّها تمهيد لما يراد قوله من ذلك ما سبق أن عرضناه من مقدّمة "عيّار الشعر" لابن طباطبا العلوي : « وفقك الله للصواب و أعانك عليه ، و جنبك الخطأ و باعدك منه و أدام أنس الآداب باصطفائك لها و حياة الحكمة باقتنائك إياها – فهمت حاطك الله – ما سألت أن أصفه لك من الشعر ، و السبب الذي يتوصل به إلى نظمه ، و تقريب ذلك على فهمك و التأتي لتيسير ما عسر منه عليك ، و أنا مبيّن ما سألت عنه، و فاتح ما يستغلق عليك منه إن شاء الله تعالى ». (39)

إنّ استعمال فعل المشيئة " إن شاء الله تعالى" يرتبط بما لم يتحقق ، و يرجى تحققه في المستقبل، إلى جانب الملفوظات الواردة : "و أنا مبيّن " و"فاتح" للدلالة على أنّ المتن سيكون واضحا قريبا من الأفهام .

قريب من ذلك ما نجده في مقدّمة " الموازنة" للآمدي : « و أنا أبتدئ بذكر مساوئ هذين الشاعرين ، لأختم بذكر محاسنهما ، و أذكر طرفا من سرقات أبي تمام و إحالاته ، و غلطه و ساقط شعره، و مساوئ البحتري في أخذ ما أخذه من معاني أبي تمام ... ثم أوازن بين شعريهما ، بين قصيدتين إذا اتفقتا في الوزن و القافية ، ثم بين معنى و معنى ،فإنّ محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك، و اتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما ، و أجعله مؤلفا على حروف المعجم ليقرب تناوله و يسهل حفظه و تقع الإحاطة به إن شاء الله تعالى ». (40)

إنّها مقدّمة ترتكز أساسا على الموازنة بين ثقافتين متباينتين ، و غالبا فإنّ شروطها غير شروط مقدّمة ابن قتيبة ، من هنا فإنّ هذين الأنموذجين (مقدمة ابن طباطبا و مقدمة الآمدي) يختلفان عن مقدمة ابن قتيبة ، إنّهما يحيلان على مشروع مستقبلي لم يتحقق بعد ، تكون المقدمة بمثابة تخطيط لمسار العمل ، و كيفية الإنجاز ، « إنّها بتعبير آخر تضع بين اعيننا ما لم يحن الوقت لرؤيته ». (41)

و الحقيقة انّ هذا النوع من المقدّمات المعبرة عما سيتحقق لاحقا، غالبا ما تكون دواعي التأليف فيه استجابة لطلب من سلطة ، سواء كان هذا الطلب صريحا أو ضمنيا، حقيقيا أو متخيلا، المهم أنّ « الكتابة تتم تنفيذا لطلب من سلطة ». (42)

لقد كانت المقدّمة عند ابن قتيبة في "الشعر و الشعراء" فضاء واسعا لسرد جملة من الإشكالات النقدية السائدة آنذاك (أقسام الشعر، القديم و المحدث، بنية القصيدة العربية و غيرها) ، إنّها بهذا الحضور المتميز تكتسي أهمية بالغة فهي ليست النص الذي يمكن تجاوزه بسهولة ، إنّما هي العتبة التي تفضي بنا إلى فضاء المتن، و تسعى إلى استجلاء مقاصد الخطاب و الكشف عن قضايا الفكر فيه ، إنّها في النهاية مرآة لفكر المؤلف ذاته المقدّمة ، فقد خرجت هذه من يد صاحبها حاملة معها الكثير من الإشكالات النقدية، تحكمت فيها معايير مهيمنة في تلك المرحلة الزمنية من تاريخ الثقافة العربية المحافظة على قيّم و أعراف في الكتابة و التلقي .

لقد حاولت مقدمة ابن قتيبة في " الشعر و الشعراء" أن تضع حدا لمرحلة الثقافة الشفاهية، تجسّد المرحلة الأولى من تأسيس ثقافة الكتابة عند العرب ، و بداية التدوين و التأليف ، لهذا كان من الطبيعي ان تجمع بين مرحلتين : الأولى اعتماده في البداية على المعارف المنقولة عن طريق الرواية الشفوية و اشتغال الذاكرة الجماعية ، و الثانية العلم المدوّن و اجتهادات ابن قتيبة في التأصيل ، فكانت تعبيرا عن ما تمّ إنجازه ، اختزلت متن الكتاب في الأسطر الأولى لها ،و هيأت القارئ لاستقبال مشروع نقدي ، فكانت العتبة التي تحملنا إلى فضاء المتن الذي لا تستقيم قراءتنا له إلاّ بها . إنّها وعاء معرفي اختزنت ذوق المؤلف الذي هيمن على رؤيته و إن كان لمنطق العقل فعله في التحول من عنصر لآخر .

من ثم كانت هذه المقدّمة مفتاحا إجرائيا و توجيهيا لتقويم الكتاب و تقديره عامة ، و فهم خصوصياته كما حققت إحدى أهم وظائف المقدمات و هو التعريف الأولي بجنس العمل الأدبي ، فكتاب "الشعر و الشعراء" لم يأخذ مشروعيته النقدية إلاّ

استنادا إلى مقدّمته التي صنفته ضمن مقروئيات النقد العربي التراثي، التي حاولنا مقاربتها برؤى و مناهج مختلفة اعتمدت الوصف و التفسير و التأويل .

لهذا فإنّ المقدمة كعتبة نصيّة تمثل ذاكرة حية تحمل صفات الحركة و المرونة ، ما جعلها حاضرة في القراءة النقدية الحداثية مع ما تحمله من محاولة أخرى لإعادة النظر في المقاييس أو تكييفها . هذا ما يؤكد أنّ التراثيين قد أدركوا أهمية مقدّمة الكتاب و عّوها لحظة إبداع تبوح فيها الذات بمعاناتها و تكشف عن تصوراتها للموضوع و مدى إحاطتها به .

وإذا كان من الواضح أنّ الفكر العربي التراثي لم يضع المقدّمة كمصطلح في مجمل مؤلفاته ،إلاّ أنّه مع ذلك قد أدرك أهميتها و وظيفتها و كيفية بنائها و جعلها تحتل موقعا هاما و جزءا أهم في مؤلفاته ، فهي في "الشعر و الشعراء" تعد في حدّ ذاتها مصدرا في القراءة النقدية الراهنة و المحتملة، استوعبت أسئلة منهجية كثيرة نوقشت في زمن ابن قتيبة، فكان لابّد من قراءة هذه العتبة قبل المرور إلى عالم المتن ،لأنها تقوم باستراتيجية البوح و الاعتراف، و تفضي إلى ما هو آت في ضوء سعيها إلى الكشف عن أنموذج الجنس الذي يتضمنها و يستقطب سماتها و علاماتها .

في الختام إذا كان من الممكن التأكيد على أنّ النص قد يكون كتابا كاملا ، فإنّ المقدّمة في النص التراثي تحتل أهم المواقع فيه ،لأنها تحقق جملة من التفاعلات النصيّة التي لا يمكن أن تتحقق في غيابها .

الهوامش و الاحالات :

1- عبد الرزاق- بلال – مدخل إلى عتبات النص- افريقيا الشرق- المغرب - 2000- ص23.

2- داود سلوم - مقالات في تأريخ النقد العربي – دار الرشيد –العراق -د ط - 1970- ص5.

3- مصطفى الشاذلي – مقاربة أولية لكيفية اشتغال المقدمة في الخطاب النقدي القديم- مجلة علامات في النقد- الفلاح للنشر و التوزيع- الجزء29-م7- السعودية -1997 – ص300.

4- عبد الرزاق- بلال – مدخل إلى عتبات النص- ص35-36.

5- حامد حفني داود – المنهج العلمي في البحث الأدبي – ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر – 1983- ص173.

6- عبد الرزاق- بلال – مدخل إلى عتبات النص- ص36.

7- حامد حفني داود – المنهج العلمي في البحث الأدبي – ص174.

8- مجدي وهبة / كامل المهندس- معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب – مكتبة لبنان – ط2- لبنان -1974 - ص104.

9- المرجع نفسه- ص 380.

10-عبد الملك أشهبون – الخطاب الافتتاحي التخييلي في الرواية العربية – موقع إلكتروني . www . arab ewrilers. Com

11-عبد الرزاق- بلال – مدخل إلى عتبات النص- ص51.

12- Voir- G –Genette - Seuils- Edition du Seuil –paris-1987- p10.

13-عبد الرزاق- بلال – مدخل إلى عتبات النص- ص48.

14-ينظر : تقديم عبد الكبير الخطيبي لكتاب عبد الفتاح كيليطو – الأدب و الغرابة – دار الطليعة للطباعة و النشر – ط3- لبنان- 1997- ص5.

15-ينظر : عبد الرزاق- بلال – مدخل إلى عتبات النص- ص35-36./ و ينظر أيضا : أبو بكر الصولي – أدب الكتّاب- شرح و تعليق : أحمد حسن سبج - دار الكتاب العلمية – ط1- لبنان 1984- ص20-21..

16-عبد الرزاق- بلال – مدخل إلى عتبات النص- ص38-39.

17-ينظر : يوسف الادريسي – الخطاب المقدماتي عند العرب/ قراءة في كتاب الأستاذ عباس أرحيلة / موقع إلكتروني : Com. Arhilaabas.Jeeran / 2008/01/27.

18-ينظر : عبد الرزاق- بلال – مدخل إلى عتبات النص- ص39-40-41.

19-عبد الرحمان ابن خلدون- المقدّمة – دار صادر –ط1- لبنان- 2000- ص11.

20-عبد الرزاق - بلال – مدخل إلى عتبات النص- ص43.

21-محمد أحمد بن طباطبا العلوي – عيّار الشعر – شرح وتحقيق : عباس عبد الستار –دار الكتب العلمية – لبنان – ط1- 1972- ص9.

22-عبد الرزاق - بلال – مدخل إلى عتبات النص- ص45.

23-محمود درويش – الأعمال الشعرية الكاملة – المجلد الأول –دار العودة – لبنان- ط14- 1994 – ص 7-8.

24-إحسان عباس – تاريخ النقد الأدبي عند العرب – دار الشروق للنشر و التوزيع – عمان –الأردن – ط2- 1993- ص 94.

25-الطاهر أحمد مكي – دراسة في مصادر الأدب – دار الفكر العربي – مصر - ط8- 1999 - ص240.

26-أمجد الطرابلسي – نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة و الأدب – دار قرطبة للطباعة و النشر – الدار البيضاء- ط5- 1986- ص184.

27-محمد زغلول سلام – تاريخ النقد الأدبي و البلاغة حتى آخر القرن الرابع الهجري – منشأة المعارف بالإسكندرية – مصر – ط3- دت- ص143.

28- جمال الدين بن الشيخ – الشعرية العربية – دار توبقال للنشر – المغرب- ط1-1996 - ص10.

29-ينظر : مصطفى الشاذلي – مقاربة أولية لكيفية اشتغال المقدمة في الخطاب النقدي القديم- ص300.

30- عبد الرزاق- بلال – مدخل إلى عتبات النص- ص42.

31-عبد الفتاح كيليطو – الحكاية و التأويل / دراسات في السرد العربي – دار توبقال للنشر- المغرب- ط2-1999- ص16.

32-أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة – الشعر و الشعراء – ج1-ج2- دار الثقافة – تح: محمد يوسف نجم – و احسان عباس- لبنان – دط- ص7.

33-المرجع نفسه – ص 7.

34- المرجع نفسه – ص 9.

35-المرجع نفسه – ص 9.

36-المرجع نفسه – ص 11.

37-ينظر : سليمان الشطي – قراءة في مقدّمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي – عالم الفكر –ع1- المجلد 18- الكويت- 1987- ص 162.

38-ابن سلام الجمحي – طبقات فحول الشعراء –قراءة و شرح: محمود محمد شاكر – مطبعة المدني –القاهرة –ط2- دت- ص3.

39-ابن طباطبا العلوي – عيّار الشعر- ص9.

40-أبو القاسم الحسن بن بشر بن حي الآمدي – الموازنة بين أبي تمام و البحتري –ج1– تح: إبراهيم شمس الدين – دار الكتب العلمية - بيروت –ط1- 2006- ص51.

41-مصطفى الشاذلي – مقاربة أولية لكيفية اشتغال المقدمة في الخطاب النقدي القديم- ص300.

42-عبد الفتاح كيليطو – الحكاية التأويل / دراسات في السرد العربي – دار توبقال للنشر – الدار البيضاء- ط2- 1999 ص74.